& بكالوريا آداب:الدلالة في رواية الشحّاذ

الجزء الثاني..!!

ب-المرجع الفكري الفلسفي:

تذكّر رواية الشحّاذ بأصول معرفيّة هي مراجع المعرفة التّي تلقّاها نجيب محفوظ بشكل مدرسيّ ممثّلة في دراسته للفلسفة رغم أنّه تنكّر لها إبداعا حين رام القصّة و أعرض عن الكتابات الفلسفيّة.و لكنّها ظلّت تطلّ برأسها بين الحين و الآخر.و لعلّ المرحلة الذهنيّة تمثّل في وجه من وجوهها عودة الابن الضالّ و حنينا إلى الثّقافة الأمّ .لذلك سكنت الشحّاذ مسائل تتعلّق بالفلسفة أكثر من تعلّقها بالأدب الرّوائي،و منها منزلة العلم و الفنّ و الفلسفة فعبّرت عن حيرة الفرد بين دنيا الفنّ الرّاقية و حقائق العلم السّاطعة و قلق العربيّ بسبب قصوره عن العلم و إحساسه بأنّ هذه الرّؤية(العلم)قد قضت على الفنّ و الفلسفة فلم يبق من الأوّل غير التّسلية و التّهريج و بيع اللبّ و الفشار على رأي مصطفى المنياوي.

و لئن كانت المسألة قديمة الطّرح فإنّ محفوظ قد أعاد ضخّ الحياة في عروقها لكنّه لم يقدّم حلاّ نهائيّا إنّما اكتفى منها بها طرحا و إثارة للذّهن.

£ منزلة الفنّ و العلم في العصر الحديث و أزمة الفنّان و قضايا الإبداع:

عبّر محفوظ عن حيرته إزاء علاقة الفنّ بالإنسان و المجتمع من خلال تعدّد الشّخصيّات و تلوّن مواقفها ممّا أثار جدلا فكريّا عمّق النّظر في المسألة،وقلّب أوجه البحث فيها.فقد ضاع الفنّ بين الهموم الذاتيّة و القضايا الكليّة المطلقة.و بدا منهج مصطفى المنياوي معبّرا عن إنحصار الفنّ في التّهريج بما هو تسلية وضيعة.بينما بدا موقف عثمان خليل مؤكّدا وجوب إرتباط الفنون بالإلتزام بقضايا الجماهير.في حين تجلّت بثّينة رمزا ناجحا تتجسّد فيه ثنائيّة العلم و الفنّ دون أن يكون بينهما صراع إقصائيّ.

شهد العالم بعد الثورة العلميّة و التكنولوجيّة المعاصرة تحوّلا هامّا في العديد من القين و المفاهيم،أخلاقيّة و سياسيّة و حضاريّة،من ذلك تراجع دور الفنّ و إنحساره أمام انتشار قيمة العلم و أهميّة حضوره الطّاغي،و هو ما جعل الفنّان يعيش أزمة نفسيّة تتمثّل في الإحساس بالفراغ،و بأنّه صار يحيا على هامش المجتمع غريبا،دون أن يكون له فيه دور،و جعله يتساءل حائرًا:هل ينبغي أن يسلم الإنسان قيادته للعلم فلا ينصت إلاّ لصوته،و لا يأخذ إلاّ بإجابته عن الأسئلة العلميّة و الوجوديّة و غيرها،أو لا يزال للفنّ دور في حياة المرء؟

لئن وجد مصطفى المنياوي لهذا الأسئلة إجابة،و لهذه الأزمة حلاّ بأن ترك الفنّ الجادّ الملتزم"لبيع اللبّ و الفشار"معلّلا تغيّره بتغيّر الظّروف و القيم:"الحقّ أنّ مفهوم الفنّ قد تغيّر و نحن لا ندري.عهد الفنّ قد مضى و إنقضى،و فنّ عصرنا هو التّسلية و التّهريج،هذا هو الفنّ الممكن في زمن العلم،و يجب أن نتخلّى للعلم عن جميع الميادين عدا السّرك...و في رأيي أنّ التّرفيه غاية جليلة لمتعبي القرن العشرين..فعلينا أن نولي المهرّجين ما يستحقّون من إحترام".

و بذلك صار أمام الفنّان خياران:إمّا أن يرضى بزاوية الظلّ دون أن يحاول إيجاد مكان له في العالم أو أن يتحوّل مهرّجا في السّرك يبيع النَّاس التّفاهات و التّسالي و اللبّ و الفشار و ذاك ما إختاره المنياوي.

و من الأفكار الأساسيّة و القضايا الرّئيسيّة التي طرقها محفوظ في شحّاذه قضيّة العلم و الفنّ و هل ينبغي أن يكون الأوّل هو الإجابة الصّحيحة الوحيدة للأسئلة المستعصية أبتي تطرحها علينا الحياة في فترتنا الحضاريّة تلك،أم أنّ الفنّ مايزال له دور حيويّ يؤدّيه لتقديم رؤيته و إجابته عن هذه الأسئلة؟

لنتابع الحوار التّالي الذي دار بين عمر الحمزاوي و مصطفى المنياوي،و لننظر ماذا يمكن أن يعطي بالنّسبة إلى هذه القضيّة من إستنتاجات:

-يا لك من مضحك!

-هي رسالتي في الحياة،التّسلية و الجمع تسليات،قديما كان للفنّ معنى حتّى أزعجه العلم..فأفقده كلّ معنى..

-أمّا أنا فقد نبذته دون تأثّر بالعلم.

-إذن لماذا نبذته؟

-ماكر كالقطّ و هذا اللّيل لا شخصيّة له.و ضجيج الطّريق و لا طرب.الماكر يسأل و هو يعلم.

دعني أسألك أنت عن السّبب؟

-قلت وقتذاك إنّك تريد أن تعيش و تنجح...

-إذن لماذا طرحت السّؤال؟

ها هي نظرة إعتراف تقلق في عينيه الذابلتين من رمد قديم.

-أنت نفسك لم تنبذه بسبب العلم وحده.

-زدني علما.

-عجزت عن أن تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى العلم.

فضحك مصطفى المنياوي بصفاء مغسول بالويسكي و قال:

-لا تخلو حركة هروبيّة من فشل و لكن صدّقني أنّ العلم لم يبق شيئا للفنّ إلاّ التّسلية و سينتهي يوما بأن يصير حلية نسائيّة منّا يُستغلّ في شهر العسل.

-ما أجمل أن أسمع ذلك،إنتقاما من الفنّ لا حبّا في العلم.

-اقرأ أيّ كتاب في الفلك أو في الطّبيعة أو في أيّ علم من العلوم و تذكّر ما تشاء من المسرحيّات أو دواوين الشّعر ثمّ إختبر بدقّة إحساس الخجل الذي سيجتاحك...

-ما أشبه هذا الشّعور بما ينْتابني عندما أفكّر في القضايا و القانون...

-هذا الشّعور المخْجل لا يعانيه إلاّ الفنّان المنبوذ من الزمن...

إنّ أوّل ما يحاول الإنسان أن يتلمّسه عند مناقشة هذه المسألة هو تحديد المعاني الكامنة في حوارات الرّواية و الأهداف التي توجّه تلك الدلالات حتّى يمكن التوصّل إلى معرفة وجهة نظر نجيب محفوظ الفنيّة في هذه القضيّة الحارقة.و يبدو أنّ محاولة التفريق بين العلم و الفنّ على هذا النّحو الحادّ الذي يجعل منهما قيمتين متقابلتين مسألة ليس من السّهل قبولها في هذا العصر المعقّد الذي نعيشه.و يمكن أن يقتل إنّ الوضع الصحيح لهما أنّهما قضيّتان متكاملتان و ليستا متقابلتين.و الإحتمال المخيف الذي قد يتركه الإنطباع الأوّل لقراءة سريعة للحوار الذي دار بين الحمزاوي و المنياوي حول هذه التيمة هو إحتجاج نجيب محفوظ-الفنّان-ضدّ الفنّ الذي إن خسر أهله فقد خسر عندئذ كلّ شيء،و إذا لم يكن الفنّانون أنفسهم يدركون-إدراك الحقيقة المتمكّنة النّابعة من العقل و القلب معا-الضّرورة الحتميّة للدور الحضاريّ للفنّ التي تتساوى مع الضرورة الحتميّة للعلم،و تتكامل معها فإنّ النّبع الخالد للحكمة يتهدّده الجفاف،و إنّ وضع القلم أصبح حتمًا لا محيد عنه.

و مع ذلك فإنّ السّؤال يظلّ قائما:أيّ نوع من الفنون ذاك الذي يقصده محفوظ حين يصرّح:"إنّ العلم لم يدع له مجالا"؟ هل هو الفنّ في معناه الجادّ الخطير الذي يتركه حقّا من هم في مستوى محفوظ،نظرا و معاناة،و الذي كان وراء النّهضات و وراء كلّ

لحظة إختراع علميّ؟ هل هو الفنّ الذي نعنيه و نتحدّث عنه على أنّه ضمير العصر الحيّ و عاصم العلم التجريبيّ من أن ينحرف إنحرافا مدمّرا؟

إذا كان هو ذاك،فكيف يحسّ الإنسان بالخجل حين يقارن بين كتاب في الفلك أو الطبيعة و ما شاء من المسرحيّات أو دواوين الشّعر؟ أم يا ترى هو ذلك الفنّ الذي إختاره المنياوي في الرّواية(و هو بيع اللبّ و الفشار) الذي يغرقنا صباح مساء؟

و إذن كيف إستحقّ شرف التّسمية؟ و ما معنى طرح السّؤال في هذه الحالة على الإطلاق؟

حقّا إنّ هذا التسآل بحذافيره يصبح مسألة هيّنة إذا قُصد به حجم الفائدة الماديّة التي تعود من وراء الإشتغال بالفنّ متى قِيسَ بحجم الفائدة التي ينتفع بها من يشتغل بالعلم،و تصبح القضيّة في هذه الحالة حسابا للرّبح و الخسارة و ليست معرفة موطن الربح-حينئذ-محتاجة إلى مجهود و قد مرّت إشارة مباشرة في الحوار إلى هذا الاحتمال:

-إذن لماذا نبذته؟

.....

-دعني أسألك أنت عن السّبب.

-قلت وقتذاك إنّكَ تريد أن تعيش و تنجح.

هناك عديد الشواهد في الرواية توجّه القضيّة وجهة محدّدة تكشف بأنّ الفنّ في"الشحّاذ"أوسع بكثير و أعمق من أن ينحصر في الفائدة الماديّة.و أحد هذه الشّواهد ذلك الحنين الصّامت من جانب الحمزاوي إلى تلك المرحلة التي كانت فيها نفسه عامرة بالفنّ،هذا الحنين الذي طفا في تلقائيّة عندما إكتشف أنّ إبنته بثينة تنظم الشّعر.و لذا تفجّر عارما في الصحراء أثناء تلك التّجربة الفريدة في الإتّصال بالكون ذات ليلة مخصوصة.إنّ هذا الحنين يظهر حتّى في الحالات التي يرفض فيها البطل مجرّد ذكر الأيّام التي كان فيها فنّانا،و يتحاشى الخوض في الذّكريات المتّصلة بها.فماذا يعني هذا الرّفض سوى عمق الإحساس بالفنّ و خوفه من أن يُغلب على أمره فيتفجّر التيّار الذي حبسه طويلا-لأغراض معيّنة-و يكتسح كلّ شيء؟

إنّ هناك إعترافا قصيرا مركّزا تلقائيّا جاد به الحمزاوي على بثينة في حالة صفاء إنسانيّ و تعاطف أبويّ شديدين.و قد يفتح هذا الاعتراف بابا جديدا يوقفنا على سبب إنصرافه عن الفنّ غير السّبب الماديّ الذي ذكره و الذي يربطه بالعيش و النّجاح.و هذا الباب الجديد نفسه يعيد لمعنى الفنّ المطروح في الرّواية ثقله،و ينْأى به عن أن يكون مرادفا لبيع اللبّ و الفشار كما يبعد به عن يكون قدره مرجوحا في حضرة العلم.

و هكذا تأخذ القضيّة شكلا جديدا بعيدا عن المقارنة بين العلم و الفنّ.لقد توقّف الفنّان لأنّ أحدا لم يستمع لغنائه مثلما صرّح لابنته حين قال:"لم يسمع لغنائي أحد".و هذه قضيّة جديدة مستقلّة بذاتها،و مأساة تتكوّن على نحو مستمرّ في داخل الفنّان و في قلب المجتمع.و كم خرست أصوات كان من حقّها على النّاس أن تسمع.

إنّ هذه القضيّة مرتبطة بحقائق نقديّة هامّة في تاريخ الفنّ و بتفصيلات مرهقة.و لكن و مع ذلك فنجيب محفوظ يوجّهها وجهة تستدعي قدرا من هذه التفصيلات النّظريّة:لماذا يصمت الفنّان حين لا يسمعه النّاس بدل أن يسمعهم ما يستهوي آذانهم و يستجيب لأذواقهم؟

و بعبارة أخرى هل أنّ تجربة الفنّان صدى أمين لتجربة الجمهور و دوره ينحصر في إبراز هذه التجربة في إطار فنّي و إعطائها خصائصها الفنيّة الثابتة أم أنّ تجربته رائدة متنبّئة ترتاد المستقبل و تكون طريقا هاديا مرشدا؟ هل الفنّان تلميذ الجماعة أو معلّمها؟

أسئلة طُرحت كثيرا في تاريخ الفنّ،و قد تولّى الدّفاع عن الفنّان و إمتيازه و رسالته كلّ من ينتمي بالروح للرومنطيقيّة.و النّسبة الطاغية من الذين صَمتوا-لأنّ المجتمع لم يفقه غناءهم،و من ثمّ لم ينصت إليهم-كانت من هؤلاء.بينما تولّت الواقعيّة الإشتراكيّة الدفاع عن وجهة النّظر الأخيرة هذه إذ يقف كلّ من المنياوي و عثمان خليل نصيرين لفكرة الفنّان ابن الجماهير و صداها الأمين لا أستاذها و رائدها:"و قال عثمان:إقذف بشعرك في المعركة تظفر بآلاف المستمعين.و حتّى مصطفى إنحطّ يوما على المقعد الطّويل مقوّس الظّهر كأنّما أوغل في الكِبَر و قال:لا فائدة من تجاهل الجماهير".

على هذا النّحو تأخذ القضيّة وضعها الطبيعي الخطير و ليس من الضروريّ بعد ذلك أن يحاول الإنسان التوصّل إلى حكم قاطع لوجهة النّظر هذه أو تلك،و ذاك لسبب هامّ هو أنّ المسألة أعقد بكثير من أن يُقضى فيها بحكم حاسم.و السّبب في ذلك يرجع جزئيّا إلى أنّ وجهتي النّظر هاتين-عند التمعّن المتمهّل الخالي من التحمّس لإحداهما أو للأخرى-تتداخل عناصرهماعلى نحو يصعب القول معه بأنّه ما قضيّتان متضادّتان.و يترتّب على هذا بسط تلك القضيّتين،و توضيح جوانبهما أكثر فائدة بكثير من الإنشغال بالحكم لإحداهما.و لعلّ ذلك كان عاملا رئيسيّا دفع محفوظ إلى التكتّم و عدم إصدار حكم قاطع في الرواية يجعلنا نضعه في جانب أنصار وجهة نظر معيّنة.

لقد صمت بطله و صمته قد يرجّح إحداهما على الأخرى،و لكنّنا نلاحظ كذلك أنّ وجهة النّظر الثانية لم تحرز تقدّما كبيرا من الناحية العمليّة فمصطفى المنياوي انصرف إلى"اللبّ و الفشار"و عمر الحمزاوي نفسه حين صمت تحوّل إلى ناحية مختلفة عن كلّ ضروب الفنّ..!!./.

اِنْتهى الجزء الثاني و يليه الثالث بإذن الله